ما تبقى لكم ، وشرط الإنسان المعذب

بقلم عبد الرحمن عيلي

منذ أصدر الاستاذ غسان كنفاني روايته « رجال في الشمس » ، وهو يجد باحثا عن ايقاع جديد يتخطى عن طريقه كل ما يغل الرواية العربية من جمود ورتابة واجترار .. وكان لصدور هذه الرواية رنة خاصة في نفوس الناقدين ، لانها مظهر من مظاهر البحث الدائب عن شكل فني يتناسب عمقا واتساعا مع الاهتزازات التي تقدح في ضلوع مجتمعنا العربي الذي طال عذابه وأساه ... واليوم يعود الروائي العربي غسان ليواصل عمله البنائي والفني في روايته الجديدة « ما تبقى لكم » .. واذا كان كبار الفنانين بوجه خاص اكثر عافية من عامة الناس واوفر حكمة منهم واعمق انسجاما كما يقول الناقد الكسندر اليوت ، فان من المحقق ان مؤلف هذه الرواية لم يقتصد في بذل هذا النسيج التعبيري المشحون بالصدق والنظرة المتحفزة المضيئة .. وقبل الدخول في عالم الرواية نشير الى وضع ادبي يكاد لتكراره يطعن في جدية التأليف واتزان الرؤية ، انه شيء يتعلق بصميم مشكلاتنا المصيرية التي نستطيع دائما ان نوليها صراخنا وهتافنا ، لكننا ، لازمة آخذة برقابنا ، لا نتمكن ان ننظم علاقاتنا التعبيرية على اساس من التوازن بين الكلمات في سوية منطقية وقتية تنظم علاقاتنا التعبيرية على اساس من التوازن بين الكلمات في سوية منطقية وقتية هادئة بلا جهارة مقرفة .. فذلك دليل على اننا ندرك امورنا الفنية كما لو كانت امتدادا لتعليقات الصحيفة السياسية ، ومن هنا تجب الاشارة الى هذا الوضع المحزن الذي يلف اعمالنا التأليفية سواء في القصة او الرواية او الشعر .. على ان ذلك لا يصرفنا عن النظر الى اعمال جادة تشف عن مجهودات حقيقية لانها كشف جديد عن عالم ساحر ما زلنا نتوق الى فض مغاليقه وكسر حدوده ..

يقف غسان في هذه الرواية عند منحدر الازمة ولكنه لا يعفي نفسه من الولوج الى مسافات يشتم منها انفاس « طنطالوس » المعذب الذي حكم عليه الاله جوبيتر بان يكون على مقربة من الطعام من غير ان يستطيع تناوله ، فكأنه يتلقى من الاله اكثر مما كان يطيق ان يهضم .. الشريحة الحياتية من صميم مأساتنا ، من عارنا المصلوب في أرض النبوة حيث تجري العلاقات بين الناس على غير نظام .. ابطال خمسة ، حامد ومريم وزكريا والساعة والصحراء ، لا يتحركون في خطوط متوازية او متعاكسة ولكن في خطوط متقاطعة ملتحمة احيانا .. معنى ذلك ان عالمهم مختلط لا يمكن التعرف عليه للمبادهة الاولى .. ثمة علاقة واضحة في مستوى الشكل العام تستطيع ان ترسم خطوطها العريضة على النحو التالي : يموت ابو حامد اثناء الغدر بمدينة يافا العربية .. حامد واخته مريم يعيشان تحت سيف الجلاد اليهودي في غزة .. زكريا صديق حامد يتعرف على مريم ثم يدخل معها في علاقة مريبة .. تنتهي بالزواج .. حامد يحمل عاره ويغادر غزة للحاق بامه التي غادرت الى الاردن منذ امد بعيد .. هذا هو السطح الذي يخفي في اعماقه دلالات ورموزا كثيرة تجعل من هذه المادة الهينة صورة حية للعمارة الفنية التي تتداخل فيها الرؤى وتمتد وتضيق المسافات فتكسر من حدة الزمان والمكان .. الرواية نسق جديد ومحاولة لهضم المضمون وفق انسيابات المنلوغ الداخلي حتى تتعرى الاشياء من ازيائها وتأخذ طابع التباين المزق للتشكيلات الخارجية .

وفجأة جاءت الصحراء .. بهذه العبارة تنفتح كوى المغامرة المشروطة بالكره والحب .. يقف حامد بعيدا عن غزة مثل كرة من خيوط الصوف مربوط اولها الى بيته في غزة ، طوال ستة عشر عاما لفوا فوقه خيطان الصوف حتى تحول الى كرة وهو الان يفكها تاركا نفسه يتدحرج في الليل . هذا التدحرج لا يعني الا ان الانسان مدفوع برغمه ان يحيا المأساة من غير ان يفقد كرامة النبعة ! « حامد يقول اشياء كثيرة اتركيه » هكذا قال زكريا الممرغ بالنتن .. من خلال هذه الذبذبات النفسية تتجسد امارات الالفة بين المحسوسات والمعقولات وتتصادى مع الساعة التي تدق تدق ، والساعة هنا ـ كما ارى ـ رمز للرعب الذي يقرر لحظة الحتم .. ولا يغير من طبيعة هذا الحتم التاريخي ان شيئا ما يفوت على الانسان الفرصة ويتلذذ بكرامة الزمن .. هناك حدان لقضية باتت رهيبة ، لموقفين متناقضين في نغمية الوجود : زكريا الخائن المتهاون لا يرعوي عن الاذعان لمشيئة الدخيل فيخبره عن سالم المناضل الايجابي ، وحامد بعفافه البنوي يكره ان يتمثل مأساته بلا مذاق ، يريد ان يكون ايجابيا ويسعى للتخطي كما تناديه امه من بعيد « لو كانت امي هنا ، لو كانت امي هنا » دلالة الام هذه تتم عملية الايصال الحاني التعيس .. الام هنا تدب لحنان الارض بعد طول فقدان .. « لقد كانت امك بالنسبة لك دائما فارسا غائبا على استعداد ليشرع سيفه في وجه أي عقبة تقف امامك وعشت كل

غمرك متكئا عليها .. » . ان هذا التحريم يعبر عن التشبث المجروح ، فالاخت مريم تفتقد الحاجز وتصبح ممرا لعبور .. معنى الفروسية يصطبغ بلهجة حاره ويرسم ملحمة العار المخضب بالدهشة .. هنا كذلك نفي للتأسيسات الروائية الانيقة .. انه رفض للتسطيح وتكثيف للحتمي النفسي بحيث تختلط الازمنة على شكل انتقالات اصعب من ان نمارس في حدود العبارات المطوطة .. فالشخصية والموقف متلازمان ومتصارعان في آن .. والصوت يأخذ نصيبا في رسم الايقاعات النفسية حتى يصعب التمييز بين ما يقوله زكريا وحامد ومريم .. والوحش يفترس بدوات الافصاح ولا يبقي من غزواته الا صدع الروح والحضارة ..

هذا التكثيف اللحمي قد يبعد عن الرواية الجزئيات التي لا تغني ولكنه يعطي العمل الروائي شيئا من رواء الاطلالات الخارجية احيانا ومن غير مبالغة .. ان الرواية الناجحة قسمة بين المضمون المترقرق والتكثيف الشعري، والتجريد في العبارة مع النزف الخفي في المقاطع يعطي الروايه نسيجا حارا تغنيه ايقاعات وثابة تستقطب مسارها من وهج الصوت والحركة النفسية المعبرة ..

في العبارة التالية تلمح المظاهر الخارجية التي تغلف الموقف . « ومن بعيد صفرت ريح صغيرة ومضت تكنس الرمل قادمة كأنما في سباق نحونا ، وحين وصلتنا غسلتنا بموجة مبكرة من الفيظ » . غير ان الحركة الداخلية للشخصية تزحم التوترات الخارجية فيبدو الصوت النفسي وكأنه عالق بحلولية الموقف .. لذلك تتفجر الازمات المتوارية من بين علاقة حامد بعدوه اليهودي الذي يريد ان يكشف امره اثناء عبوره الحدود ..ويتهدى صوت اخر يتضمن العلاقة الجدية بين مريم وزكريا .. حامد ومريم يريدان التخطي واملاء المواقف بصرخة النفس التي لم تنسا ان تتمرغ في الوحل .

« وعندها فقط نظر الى عيني . ولمحت من جديد تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز فأدركت انه سيكون بوسعي ذات لحظة ان أجز عنقه دون رجفة واحدة ، وان هذه اللحظة ستأتي لا محالة تحت وقع البريق المرعوب في عينيه » (حامد) .

« ولمعت امامي بنصلها الطويل المتوقد ، فوق الطاولة ، فردني الجدار اليها كأنني لعبة مطاط واحتوتها قبضتاي معا وانسدل ذراعاي فوق كفي المطبقتين على مقبضها حتى اسفل بطني متشنجتين قاسيتين ، واندفعتا مرة واحدة ونحن ننظر في عيني بعضنا مباشرة .. كان النصل مندفعا من بين كفي المحكمتي الاغلاق وأحسست به حين ارتطمنا يغوص فيه » (مريم) ..

فيصل الامور ينم عن ايجابية قاطعة تفقد ملامسها الاولى عندما يلوح ان الحقد اقوى من ان يخضع لصوت المسأومة .. وحين نتتبع المنابع الاولى لهذا النمو المصيري الصاعد لا يصعب علينا التعرف على البصمات التي صنعت من حامد انسانا اخر .. ان الميلاد الكامل للبطل المعذب هو من جنس التراب الحزين .. ان البطولة علاقه متشابكه وشرطها التاريخي موصول بمراره النفس واطراد المقامرة .. ولم يعذب للانسان الفتي المغامر ان يكون قادرا سيدا من ان يكون رصيف الفاع المذال !..

يقول سالم العربي الممتلىء صحة نضالية لصديقه حامد وهو في بدء الطريق الشاق : ألم تشته يوما ان تطق رصاصة في معركة فاتتك دون ان تطلق فيها اية رصاصة ؟ « لقد قتلوا اباك كما اعلم واغلب الظن انك عشت تعلك اسنانك وتتوعد وتقول لو .. حسنا ! » . لم يفقد حامد الحافز التاريخي .. ولكنه مصاب بالجفاف ، فقد كان لا يشرب الماء الا من الابريق .. فكيف يبل ريقه ؟! ثمة ذل جديد لا يمسح الا بشهوه العناق مع الشمس .. والعار يتسع شدقاه مع نمو فصول الماساه .. يدق يدق كالساعة .. ولكن العقرب الكبير انسل ومضى يبتعد قارعا خطوته المفردة في الفراغ .. ان مريم تريد ان تولد من العار المخضب بالقهر لانها نهب للمجهول لطفلها الذي سيؤكد معنى التحقق اللانهائي « وفجأة اخذ ينبض في احشائي ، وشعرت بحركته الصغيرة تتدفق في بدني فقد كانت تلك هي المرة الاولى التي احسبه فيها يتحرك بعيدا في ظلام مجهول ولانهائي » .

ويقول زكريا : اسمعيني وقولي غدا ان زكريا قال ، اذا لم تستطيعي اسقاط ذلك الفواد الصغير .. فأنت طالقة » . عند هذه المعاني تتكسر مغاليق الرموز .. فزكريا مغتصب يريد ان يأتي على البقية الباقية التي يسعى الى سلبها الغاصب .. انها الارض التي تؤذن بالفقد الكامل .. ومن هنا يشفق القارىء على مريم بعد شيء من القطيعة . فمريم تتخطى عارها .. تسخط وتشرع في قتل زكريا .. هذا الرباط المتضاد رفض لابوة ماكرة تدمغ اضالة الانسان ! ان مريم صياغة وجودية اخرى متولدة من شرط العذاب ... غسان الروائي كما يلوح لنا ، يبني عمارته الفنية من خامات مضرجة بملح الارض .. لا يبالغ في خلق النعوت البطولية المهولة .. انه ينحت اشخاصه من جذر البساطة والعمق فيغدق عليها دما ساخنا ويكسوها لحما انسانيا فاجعا .. وهو بعد لا يتحمل التبريرات والاعذار المقررة .. وانما يبني عالمه كمثل الحلم الرخي الذي ينقلب الى رعب ممزق عند حالة الصحو ..

هذا الصدور العفوي هو الذي يجعل من روايته الصغيرة « ما تبقى لكم » عملا جادا وارهاصا بميلاد الرواية العربية الممتازة ...

البصرة ـ الجمهورية العراقية

عبد الرحمن علي